

الشعر الصوفي في نيجيريا: دوافع واتجاهات

موسى عبدالسلام مصطفى أبيكن

التمهيد:

انتشرت اللغة العربية في غرب إفريقيا مع انتشار الإسلام فيها، وتأسست الممالك والدول التي اشترك فيها العرب والعجم في غانة ومالي وسنغى وبرنو. واعتنى الملوك بشأن التعليم واستعانوا بالعلماء في تفهم أمور الدين وتطبيق الشريعة وفروعها، فقصدوا بلاد العرب المجاورة لهم للاستفادة، واستقدموا إلى بلادهم العلماء العرب لنشر العلوم بينهم حتى نبغ الكثيرون، فألفوا الكتب وكتبوا الشعر في الأغراض التي تناسب بيئتهم⁽¹⁾.

واليوم بين أيدينا عدد ضخم من نتاج أفكار الأدباء ممثلة في قصائد جياشة، وتآليف كثيرة في شتى العلوم العربية والإنسانية. وكلها تشير إلى رقيّ المستوى الفكري واللغوي الذي كان يتمتع به أولئك الأدباء⁽²⁾. لقد ترك علماءنا من الشعر ما لا يستهان به إذا عرض على ضوء النقد الأدبي بحيث لو اطلع عليه عربي قحّ أو ناقد نزيه لما وسعه إلا أن يطأطئ رأسه إعجابا بالقرينة التي جادت به رغم بعد الدار وعدم توفر الأسباب⁽³⁾. والحركة الصوفية في نيجيريا لها دور هام وحساس في الأدب العربي النيجيري منذ نشأته إلى يومنا هذا، لأن أكثر العلماء والمفكرين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين الميلاديين متصوفون ومنتسبون إلى طريقة من الطرق الصوفية، ولا يكاد الباحث أن يطلع على آثارهم إلا وفوجئ

1- آدم عبدالله الالورى: لباب الأدب، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيني، الطبعة الثانية، ص 52.

2- مشهود محمود محمد جمبا: دراسة تحليلية للوصف في الشعر العربي النيجيري، أطروحة قدّمتها صاحبها إلى قسم اللغة العربية بجامعة الورد لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها عام 2005م.

3- آدم عبد الله الالورى: مصباح الدراسات العربية في الديار النيجيرية، الطبعة الأولى، ص 9.

بشيء ملموس من النزعة الصوفية، وفوق ذلك فإن لهم إنتاجاً شعرياً كثيراً عاجلوا فيه أفكاراً صوفية تغنوا فيه بأذواق الصوفية وأحوالهم.

ولاغربة في ذلك، فإن المتبع لتاريخ دخول الإسلام وانتشاره في غرب إفريقيا عموماً، وفي نيجيريا خصوصاً عبر العصور والأطوار يدرك الدور الفعال الذي لعبه التصوف منذ ظهور الإسلام في نيجيريا، ولم تزل للطرق الصوفية حتى الآن آثار بارزة في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في نيجيريا. أما الموضوعات التي يدور حولها الشعر الصوفي فهي في الغالب لا تتجاوز عن الحب الإلهي والمديح النبوي والاستغاثة والتوسل ومدح شيوخ الطرق الصوفية واللعنات والوصول والمناجاة والزهد والرمز. الشاعر النيجيري المسلم: نشأته وتكوينه:

يمرّ الشاعر النيجيري المسلم في طور نشأته وتكوينه ببيئتين تؤثران غالباً على تكوين شخصيته وتطبع نوعيته، الأولى: هي البيئة الإسلامية العامة التي تمجد الفضيلة وترفع قيمة الحياء وتقدر الاحترام وتمقت الرذيلة، ويكتسب الناشئ هذه الخصال في الأسرة وفي مجالس الوعظ والإرشاد التي يكتظ بها البلد. والبيئة الثانية: هي البيئة التعليمية الخاصة حيث يدخل الكتاب في سن مبكرة، ويتعلم فيه القرآن الكريم والدروس العربية والإسلامية الأولية، ثم ينتظم في إحدى المدارس العربية النظامية بالمدرسة الابتدائية ثم الإعدادية ثم الثانوية ثم الجامعية⁽⁴⁾.

وظيفة الشعر في المجتمع النيجيري المسلم:

فمن هذا المنطلق تنشأ وظيفة الشعر عند الشاعر النيجيري المسلم من منابع الدين والأخلاق، لا تنفصل عنها قط. فيحس الشاعر بإسلامه قبل أن يحس بفنه، ويخضع أدبه لتعليمات دينه ولا العكس. والشعر له أداة للدفاع عن عقيدته السمحة، ومناصرة الحق، ونشر الأخلاق الفاضلة، وقمع الفساد والإلحاد، وذلك كله وظيفته الشعر العربية في المجتمع النيجيري المسلم⁽⁵⁾.

لقد ظهر في نيجيريا شعراء مفلقون نافسوا إخوانهم في بلاد العرب منذ قرنين ماضيين في أبواب الشعر كلها وأجادوا فيها وابتكروا. ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الشعر العربي ليس بحديث العهد في نيجيريا بل إنها هو فن نال عند علمائها رواجاً وإقبالا شديدين منذ زمن قديم.

4- مقالة قدمها الدكتور مشهود محمود محمد جيبا في الندوة التي أقيمت بالقسم العربي بجامعة ولاية كوفي عام

2006 بعنوان "القيم الخلقية في الشعر العربي المعاصر في مدينة إورن"، نيجيريا، ص 5.

5- المرجع نفسه، ص 6.

ومن الأهمية بمكان أن نقسم الشعر العربي النيجيري إلى ثلاثة أقسام: فالقسم الأول هو الشعر العربي الذي قيل في القرن التاسع عشر الميلادي، والقسم الثاني هو الشعر الذي نظمته الشعراء في القرن العشرين، والقسم الثالث هو الذي قيل في مستهل القرن الحادي والعشرين.

الشعر العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي:

يعتبر القرن التاسع عشر عصر النهضة الشعرية في نيجيريا، لأن العلماء هم الذين رفعوا الشعر إلى قمته بتحويل منثور إلى منظوم في ميادين العلم كلها، وإن كانوا لا يرون أنفسهم شعراء. وهؤلاء العلماء هم الذين قاموا بدور الشعراء، لأنهم، هم وحدهم، الذين استطاعوا أن يجيدوا اللغة العربية ويتذوقوا سحرها وبلاغتها، ويتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم، وينظموا الشعر كما نظمته شعراء العربية وأدباؤها⁽⁶⁾. وبالرغم من أن هؤلاء العلماء قد استخدموا معظم بحور الشعر العربي إلا أن الأبواب التي طرقتها لا تزيد على ثمانية وهي: الثناء على الله، المديح، الوصف، الرثاء، الوعظ، الإرشاد، الحكم والأمثال، والفكاهة⁽⁷⁾.

وفارس هذا الميدان هو الشيخ عبدالله بن فودي (1766-1829م) فإنه شخصية بارزة تفخر البلاد بمؤلفاته لا لكثرتها وقيمتها فحسب، ولكن لشمولها معظم العلوم من تفسير وفقه وتصوف وتاريخ وحديث ولغة ونحو وصرف ومنطق وعلم الكلام وعروض وأدب. ولا شك أنه كان أكبر عالم وكاتب عرفته إفريقية الغربية. فلا غرابة أن يلقبه الناس بعربي السودان لمجهوده الجبار، وفضلاً عن ذلك فهو شاعر مفلق وقائد بارع وسياسي محنك⁽⁸⁾.

لقد ترك الشيخ عبدالله بن فودي أكثر من مائتي كتاب في مختلف الفنون⁽⁹⁾. ومن أروع قصائده هي جيميته التي نظمها في مدح شيخه جبريل بن عمر وأخيه عثمان بن فودي، مطلعها:

عج نحو أضواج الأحبة من مج واشرب من الأنشاج ماء الزعيج⁽¹⁰⁾

-
- 6- علي أبوبكر: الثقافة العربية في نيجيريا من 1750 إلى 1960م عام الاستقلال، مؤسسة عبدالحفيظ البساط، بيروت، الطبعة الأولى، ص 327.
- 7- المرجع نفسه، ص 327.
- 8- المرجع نفسه، ص 264.
- 9- آدم عبدالله الالورى: المرجع السابق، ص 20.
- 10- عبدالله بن فودي: تزيين الورقات بجمع بعض ما لي من الأبيات، مكتبة أبوبكر أيوب، كانو، نيجيريا، ص 20-24.

شج الدموع على منازلهم بها
قف عندها سل من بها فعسى تجب
وله شبول ناثبون منابه
فغدى له نور الزمان مساعدا
إظهار دين الله بين عدوه
جبريل من جبر الإله لنا به
شمس الضحى بزغت بغرب فانتحت
متفنن متبحر في علمه
لم يخش من إظهار دين الله من

وفي مدح الثاني قال:

عثمان من قد جاءنا في ظلمة
ودعا إلى دين الإله ولم يخف
بشرى لأمة أحمد ببلادنا
كم سنة أحييتها وضلالة
وطلعت في أرض عواندها عدت
استعظمتها أهلها فاستأسدت
من أراد دين الله يمحو عزها
فقصمتها بالبيض من آياته
ولكل فرعون طغى موسى سطي
فابيض وجه الدين بعد محاقه
والدين في عز ونهج منهج
والسنة الغراء صبح ينجلي
وتفجرت للدين من بركاته
سعد الزمان بهم وزايد خيرره

واشف الجنان من الهموم الدمج
حوجاء أو لوجاء ترضى من شج
والشبل عند السبر مثل الخزرج
أو ساعدا في فتح باب مرتج
لم يلتفت لمكذب متلجلج
دينا حنيفا مستقيم المنهج
للشرق تشرق في قريش وخزرج
متعطف متلطف للمعجج
مستهزئ أو لائم متمجمج

فأزاح عنا كل أسود دجدج
في ذاك لومة لائم أو فجفج
السودان في هذا الزمان المبهج
أحمدتها جمرا ذكا بتأجج
وتخالفت سنن النبي الأبهج
وصدت دوين الدين باب الولوج
فقمعتها قمع القوي الأعوج
وأسنة سنن النبي الأدعج
وقضية عاصت عليا تنفج
واسود وجه الكفر بعد تلبج
والكفر في ذل ونهج منهج
والبدعة السوداء ليل يدج
عين الحياة تذلل ماء الحشرج
فبجهم غفران ذنبي أرتج

وقد استحدثت الشاعرة النيجيرية السيدة رقية، جدة الشيخ عثمان بن فودي، مؤسس الدولة الإسلامية بصكتو (1804م) شمال نيجيريا، بحراً جديداً سمته "بحر الكريم"⁽¹¹⁾ لم يعرف هذا البحر من البحور العربية الستة عشر ولا في بحور المولدين، ولم يعرف في غير هذه البلاد "نيجيريا"، تفاعيله: فاعلن فعولن أربع مرات. وقد نظمت هذه القصيدة على طراز البحر المذكور يفتتح كل بيت بحروف الهجاء، تقول:

لا يخاف بخسا كل من رجاه	الكريم يقبل تائبا أتاه
لا ينال عزا من تبع هواه	بالعذاب يجزي من عصي ويجزي
أن في جهنم سجن من عصاه	تب لعل ترحم يا أخي فاعلم
من عصي محمداً هكذا جزاه	ثم من تمرد في اللظى يصفد
خيره يقتر قد عظم بلاه	جبره يكسر عيشه يكدر
قد لقي جهولا ما جنت يده	حائرا ذليلا قد كسى نحولا
إن في معادك ما سعت تسراه	خل عن مرادك وأكثر اجتهادك
من له صناعة واجب تقاه	دم على الجماعة والزم القناعة
في الجحيم يحشر قعرها مأواه	ذو الجلال قدر أن من تجبر
أمره عظيم جل في علاه	ربنا كريم لم يزل رحيم
ماعمى العمى يامن قلبه عماه	زارع الخطايا حاصد البرايا

وبهذه الصورة تبرز القصيدة إلى آخر الحروف الهجائية.

الشعر العربي النيجيري في القرن العشرين:

يمتاز القرن العشرون عن القرن التاسع عشر بكثرة عدد العلماء الذين يجيدون اللغة العربية، ويرجع الفضل في ذلك إلى إنشاء مدرسة الشريعة في كانو سنة 1934م التي أخذت تخرج دفعاتها سنويا منذ

سنة 1938م⁽¹²⁾، وقد نتج عن ازدياد عدد هؤلاء المتخرجين أن ارتفع عدد المتكلمين باللغة العربية، والذين يجيدون كتابتها، وقد لعب عدد كبير من هؤلاء الخريجين دوراً هاماً في تطوير الحياة الثقافية في البلاد⁽¹³⁾. ولم يتطور الشعر العربي النيجيري في هذه الفترة تطوراً كبيراً، يجعله مختلفاً عن الشعر في القرن الماضي، فقد ظل العلماء والأدباء يقرضون الشعر على نفس المنوال، فيتناولون نفس الأغراض التقليدية كما يستعملون نفس الأسلوب التقليدي في كثير من الأحيان غير أنه من الطبيعي أن يتلاشى شعر الحرب والحماسة. ومن الطبيعي كذلك أن تضاف بعض الأغراض الجديدة التي لم تطرق في القرن التاسع عشر الميلادي، فالبيئة الجديدة والحياة السياسية الحديثة تستلزمان إدخال شيء ما من التجديد في الشعر في موضوعه وأسلوبه⁽¹⁴⁾.

ومن أمراء الشعر في القرن العشرين الوزير جنيد الصكتي (1906-1996م) ويعتبر هذا العالم من أكبر علماء نيجيريا في وقته، تبلغ إنتاجاته إلى خمسين كتاباً ما بين منشور ومنظوم⁽¹⁵⁾، ولعل الشيخ جنيد أول شاعر نيجيري يصف لنا الطائفة شعراً في زيارة له إلى البلاد العربية عام 1945م، يقول:

خرجنا بعون الله في غلس إلى الـ سـمطار وكنا كالطيور البواكر⁽¹⁶⁾
 فطارت بنا من يرو ولاجة الهوى تدافع أمواج الهوا في الهواجر
 تخوض عباب الجو عند ارتفاعها وتملؤه من صوتها بالزواجر
 مجوفة فيها كراسي صفقت مليئة بالخيش برا لزائر

12- علي أبوبكر، المرجع السابق، ص 344.

13- المرجع نفسه، ص 344.

14- شيخو أحمد سعيد غلادشي: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، الطبعة الثانية، ص 147.

15- ذكر هذا العدد الأستاذ عبد الرحيم عيسى الأول في ورقة نشرت له مجلة قسم الأديان بجامعة إلورن، العدد السابع عشر عام 2003م بعنوان "من أدب الرحلة العربي في نيجيريا، دراسة تحليلية لمخطوطة الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة للوزير جنيد"، ص 6.

16- سافر الشيخ جنيد إلى الخرطوم عام 1945م مع وفد أرسلته الحكومة النيجيرية إلى السودان والحجاز للنظر في أمر الحجاج وخاصة الذين يعجزون عن الرجوع إلى أوطانهم بعد أداء فريضة الحج لأسباب مالية أو صحية، وكانت الحكومة قد بلغها أن حالة أولئك كانت سيئة جداً في الحجاز والسودان.

ونفعل فيها كل شيء نريده
إلى أن أنخناها وفازت يد النوى
وعند غروب الشمس تم نزولنا
فلاحت لآلي الكهرباء كأنها
فلما انتهينا واطمأنت نفوسنا
على شاطئ النيل المبارك قد رسا
نمتع فيه كل يوم عيوننا
به ألف مصباح تضيء كأنها
زوارقه تأتي وتذهب دائما
إلى آخر أبياته.

وهذا النوع من الشعر جديد في الشعر العربي النيجيري، ومن قصيدة أخرى له يصف الطائرة

إذ قال:

يا من يصعد أنفاس بأنفاس
اصبر قليلا فإننا سوف تحملنا
صعادة تتبارى في تجولها
طيارة صوتها عال مجوفة
أناة في نزول عند ما بلغت
مملوءة بكراسي ملينة
تنقاد طائعة في كنف صاحبها
فاعجب لها إنها عنقاء مغربة
شوقا بخرطوم ذات الورد والآس
رعادة الهوا ملمومة الرأس
شهب السماء التي ترمي بأقباس
زمكها كذوابى الشاهق الرأس
إلى المحطة تمشي مشي مياس
بالخيش تلبس ترويجا لجلاس
كدابة ذلت في كف سواس
جاءت تذكر عباس بن فرناس (17)

-17 هو عباس بن فرناس الأندلسي. توفي سنة 887م انظر ترجمته في:

The Encyclopedia of Islam, New edition vol. 1 under this name.

الشعر العربي النيجيري في القرن الحادي والعشرين:

ليس هنالك فرق كبير في الشعر العربي النيجيري بمطلع هذا القرن بيد أن الشعراء تكاثروا في البلاد جنوبا وشمالا بكثرة المدارس العربية الإسلامية في عواصم البلاد وقراها، وبتعدد دواوين ذات اتجاهات وجدانية فنية، وموضوعات جديدة لا تقل روعة بأشعار العرب.

ففي مدينة إلورن مثلا بلغ الشعراء في المدينة ما يقرب مائة شاعر شبان على أقل تقدير⁽¹⁸⁾ تتفاوت مواهبهم الشعرية وقدراتهم الإبداعية، يميون بها المناسبات الدينية والاجتماعية والعلمية، ولا تسأل عن بلدان أخرى في مشارق نيجيريا ومغاربها. ومن الجدير بالذكر أن الشعراء اليوم يصدرون الدواوين حينما بعد آخر على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ومواهبهم غير أن إخراج الدواوين في القرنين الماضيين على شكل كتاب كان صعبا لقلّة التسهيلات، فوجدت أكثرها إن لم يكن كلها على نمط المخطوطات. وأما الذين نشروا دواوينهم في هذا القرن الجديد فنكتفي بذكر بعضهم للتمثيل لا من باب الحصر، منهم: مصطفى سعيد أولامى أطلق على ديوانه بـ: حاوية الخلجات⁽¹⁹⁾ وأخوه عبد اللطيف سعيد أولامى بعنوان: قطرات الخاطر⁽²⁰⁾ وعيسى ألبى أبو بكر بعنوان: الرياض⁽²¹⁾ وعمر إبراهيم بعنوان: حديقة الأزهار⁽²²⁾ وسبحات الأنوار من سحبات الأسرار للشيخ محمد الناصر الكبري⁽²³⁾ وهكذا دواليك.

وفي طليعة هؤلاء الشعراء الدكتور عيسى ألبى أبو بكر، المحاضر بقسم اللغة العربية بجامعة إلورن، وقد ظل الشاعر يقرض الأشعار حول حوادث تاريخية سياسية كانت أم ثقافية، بل ما من حادثة هامة تحدث في نيجيريا وفي العالم بأجمع إلا وله قصيدة تستعيد ذكراها نحوها جبا لها أم بغضا عليها.

18- ذكر هذا العدد على وجه التقريب الدكتور مشهود محمود محمد جمبا في الندوة الثقافة التي أقيمت بالقسم العربي

بجامعة ولاية كوغى، المرجع السابق، ص 4.

19- مصطفى سعيد أولامى: حاوية الخلجات، مطبعة الحكمة للتصميم والنشر لاغوس، نيجيريا، الطبعة الأولى، عام 2005م.

20- عبد اللطيف سعيد أولامى: قطرات الخاطر، مكان النشر غير مذكور، الطبعة الأولى، 2004م/ 1425هـ.

21- عيسى ألبى أبوبكر: الرياض، تحت الطبع.

22- عمر إبراهيم: حديقة الأزهار، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، عام 1996م.

23- محمد الناصر الكبري: سبحات الأنوار من سحبات الأسرار، قام بطبعه ونشره محمد الثاني علي عام 1999م.

وإليك بعض الأبيات التي قرضها الشاعر في رثاء الشيخ محمد كمال الدين الأدبي، مؤسس جمعية أنصار الإسلام، يقول فيها:

ويح النفوس فقدنا من يزكيها	بالصالحات وبالتنوير يحييها ⁽²⁴⁾
دق النعاة قلوبا في جوانحها	قالوا بأن "ألورن" مات مفتيها
هذى الوجيعه عمت كل حاضرة	فمن يصادف بين الناس آسيها
أعطاه ربي علوما ليس يملكها	إلا الذي لرضا الرحمن يفشيها
إن الأحاديث من يحيي مجالسها	والآي في الصوم من يبدي مراميها
إن التلاوة من يدري طرائقها	حقوقها واعيا دوما يوفيهها
نرجو بقاء "كمال الدين" في وله	والروح تهفو إلى الرحمن باريها
يارب رفقا بأرواح المشايخ في	يوم التنادي وكن في الروع هاديها
وارحم إلهي كمال الدين قدوتنا	من جاء هذى الدنيا يجلي دياحيها
يارب صل على المختار سيدنا	باني الشريعة في الدنيا وراعيها

أسباب نهضة الشعر في نيجيريا:

وقد كان اتصال نيجيريا بالعالم الخارجي عن طريق الرحلات العلمية، والاختراعات الجديدة الحديثة في تطوير آفاق الشعر وموضوعاته وكان عاملا قويا في أغراضه ومناحيه. وهذا الاتصال بطبيعة الحال عمل بحق على تقدم الشعر تقدما حثيثا في اتجاهاته وتنوع أغراضه، وبالتالي أصبح الشعر يتناول موضوعات جديدة من مخترعات العصر.

ثم وجود كتب عربية أدبية حديثة في المكتبات العامة والخاصة بها في ذلك دواوين شعراء العرب - قدامى ومعاصرين - هو عامل جوهري في تكوين شعراء نيجيريا ورسوخ أقدامهم في الشعر بشتى أغراضه. ومن أسباب نهضة الشعر في نيجيريا، رجوع وفود البعثات العلمية للدراسات الجامعية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من البلاد العربية وغيرها، وقد ساهم على نهضة الشعر بكثير، فهؤلاء المبعوثون عادوا بأفكار جديدة، وثقافة واسعة بعد أن قضوا فترة تقل وتكثر حسب تخصصاتهم ومستوياتهم⁽²⁵⁾.

24- ألقى الشاعر هذه القصيدة يوم انتقال الشيخ كمال الدين إلى جوار ربه عام 2005 م.

25- موسى عبد السلام مصطفى أبيكن: الاتجاهات الوجدانية في شعر عيسى ألبى: دراسة تحليلية، أطروحة درجة دكتوراه، قدمت إلى جامعة ولاية لاغوس بوحدة اللغة العربية، 2007 م، ص 60-65.

الصوفية ودورها الحيوي في المجتمع النيجيري:

الصوفية مذهب يدعو إلى تصفية النفس وتزكيتها والتقرب إلى الله بالنوافل بعد اكتمال الفرائض للحصول على محبة الله⁽²⁶⁾. وقد كان أغلب مسلمي غرب إفريقيا يلتزمون طريقة من الطرق الصوفية كالقادرية والتيجانية والسنوسية، ومن رجال هذه الطرق تكونت الجيوش الإسلامية التي قادها الدعاة الذين أسسوا الدول والحكومات الإسلامية بغرب إفريقيا على أنقاض الدول والحكومات الجاهلية الأولى، وكان من أسباب تمسك الأفارقة بأوراد هذه الطرق وأذكارها ما يأتي:

أولاً: اعتقادهم أن لها تأثيراً كبيراً في استجابة دعواتهم أو أن الولي الذي انتسبوا إليه إنما حصل على درجة الولاية من تلك الأذكار.

ثانياً: بقية فطرة التدين في نفوس الكثيرين منهم، فلم تطب نفوسهم بالاعتصار على الفرائض دون إضافة النوافل الخيرية إليها باعتبار أن الفرائض رؤوس الأموال، والنوافل هي الأرباح التي تؤخذ منها لتكميل الفرائض إذا انتقضت.

ثالثاً: كان العلماء يتشددون في ضرورة الأخذ بالتجويد لقراءة القرآن فيهرب العوام من تلاوته إلى الالتزام بالأوراد التي يحصل لهم فيها الأجر والثواب دون تلاوة القرآن التي يأثمون منها إذا لم يجودوا القرآن كما يجب⁽²⁷⁾.

وفي التصوف الإسلامي يقول عبد الرحمن عبد العزيز الزكوى النيجيري:

إن التصوف بالإسلام موصول	حقيقة إنه زهد وتبئيل ⁽²⁸⁾
فلا انفكاك له عن ديننا أبداً	مهها تقاومه من قوم أباطيل
فإنه الشرح للإحسان حيث أتى	من النبي حديث عنه منقول
إن التصوف صابون وتزكية	للقلب ثم لهذا الدين تجميل

26- آدم عبد الله الالورى: دور التصوف والصوفية والسلفية المالكية المصرية والمغربية في غرب إفريقيا، دار التوفيق

النموذجية للطباعة، الأزهر، مصر، ص 7.

27- آدم عبد الله الالورى: توجيه الدعوة والدعاة في نيجيريا وغرب إفريقيا، مطبعة الأمانة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1979م، ص 79-80.

28- عبدالرحمان عبدالعزيز الزكوى: نشر الياسمين في قصائد عيد الأربعين، مطبعة مركز العلوم، أوتب، أغينى، لاغوس، نيجيريا، ص 7.

لكن عمدته علم ومعرفة
فإنما العلم قلب للتصوف بل
فبالتصوف كان الدين منتشرًا
ومن تصوف قد طابت معيشته
أقبل على الله واترك ما يفوت أخي
إن التصوف دون العلم تضليل
من ادّعه على الجهلات معذول
حقا ولا قال في هذا ولا قيل
دعاؤه لو دعا الرحمن مقبول
طوبى لمن هو بالتسييح مشغول

وإذا كان للصوفية سيئات في البلاد الأخرى فإن لها حسنات في نيجيريا بوجه خاص، وفي غرب

إفريقيا بوجه عام، ولا أدل على ذلك من قول شاعرهم:

لو لم تكن طرق الأذكار منتشرة
ولا يزال بها الإسلام منتشرًا
وإن أعانت ذوي التبشير شرذمة
رامت قضاء على الطرق التي نصرت
لعمر الكفر بالتبشير أوطاننا⁽²⁹⁾
بالحق منتصرًا قد فاق أديانا
قد صيروها لهدم الدين أعوانا
ليخلو الجو للتبشير إعلانا

آراء العلماء في التصوف:

انقسم الذين كتبوا في التصوف إلى ثلاثة أقسام: قسم ذموا التصوف كل الذم، ولم يروه من الإسلام في شيء، وقسم مدحوه مدحا كله وزعموا أن من لم يتصوف كان ناقصا في الإسلام، وقسم آخر اعتدلوا وأخذوا منه ما صفا وتركوا منه ما كدر⁽³⁰⁾. فأما الذين غلوا في ذم التصوف وحملوا على الصوفية حملات شعواء فمنهم الحافظ بن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس، لم يجد هذا العالم في كتب التصوف نفعا ولا خيرا، ولم يسلم من قلمه اللاذع أحد من أعلام الصوفية، ثم جاء تلاميذه وحملوا على التصوف، وطاردوا الصوفية قاطبة من حظيرة الإسلام.

أما الذين مدحوا التصوف والصوفية فأشهرهم الإمام الغزالي حيث يقول في كتابه المنقذ من الضلال: ... إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير،

29- آدم عبد الله الالورى: الإسلام اليوم وغداً في نيجيريا، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1985م/1405هـ،

ص 123.

30- آدم عبد الله الالورى: توجيه الدعوة والدعاة، ص 54.

وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به⁽³¹⁾.

أما الذين اعتدلوا في ذم التصوف ومدحه فأقربهم إلى عهدنا الأستاذ محمد رشيد تلميذ الإمام محمد عبده أحد أركان النهضة الحديثة يقول: ... وقد غلا في علم التصوف فريقان: فريق عده كله بدعا محدثة يجب ردّها وعدم قبول شيء منها إلا إذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب والسنة أو الإجماع ولا يعتد بما يسمونه الإشارة ولا الكشف لأنها ليسا من طرق الدلالة في الشرع واللغة، ومنهم من جعل ما ثبت عن الصوفية ديناً يتقرّب به إلى الله وينكر به مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة ونصوص الأئمة، ويؤمن بمتشابه التصوف كمتشابه الكتاب والسنة مع أن الصوفية أنفسهم أنكروا ذلك. والصواب أن كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والأصول والفقه والفلسفة، وكتبهم ككتب هؤلاء، فيها الخطأ والصواب.

الطرق الصوفية في نيجيريا:

الطريقة عبارة عن رابطة روحية تضم أفراداً وجماعات من الناس، تحت قيادة واحدة يسمعون لهذه القيادة ويطيعون لها في المنشط والمكروه⁽³²⁾. ولقد كانت الطريقة عند الصوفية رابطة روحية تتخذ التعبد والتنسك وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وتقوم بالرياضة التي تسمو بها النفس إلى درجة الاتصال الروحي بالملأ الأعلى، فيصير كل ما عدا الله باطلاً حقيراً في أعينهم، فلقد أدت خدمتها الجليلة للدعوة الإسلامية خصوصاً في غرب إفريقيا حتى لم يبق مجال لنكران فضلها في نشر الإسلام⁽³³⁾.

ويرتبط تاريخ دخول الطرق الصوفية في نيجيريا بدخول الإسلام فيها، ولقد كان للطرق الصوفية دور ملموس ومحمود جبار في نشر الإسلام وثقافته في بلاد السودان، وانتشرت هذه الطرق في القارة الإفريقية منذ عهد قديم.

وقد انتشرت في نيجيريا خمس طرق صوفية وهي: الطريقة القادرية والتيجانية والسنوسية والمهدية والعروسية، ولكن الطريقة القادرية والتيجانية تالان منها شهرة أكبر من الطرق الثلاث الأخرى.

31- المرجع نفسه، ص 59-60.

32- المرجع نفسه، ص 79.

33- آدم عبد الله اللورى: الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، الطبعة الثانية، 1978م/1398هـ

ص 42-43 بتصرف يسير.

الطريقة القادرية:

الطريقة القادرية رابطة روحية أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني ومركزها الأصلي في بغداد، وأول من نشرها في بلاد السودان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني⁽³⁴⁾. وقد ساهم في نشر الطريقة القادرية في هذه البلاد - نيجيريا - كل من أبناء الشيخ عثمان بن فودي وأخيه عبد الله ووزراء دولته وتلاميذهما. والشيخ عثمان بن فودي نفسه قطب من أقطاب هذه الطريقة. إليك هذه الأبيات التي عربها الشيخ عبد الله من اللغة الفلانية لأخيه عثمان بن فودي يتوسل بها إلى الله بواسطة الشيخ عبد القادر الجيلاني:

يا رب عالم باطن كالظاهر	أحب الذي يدعى بعبد القادر ⁽³⁵⁾
يا رب يا متفضلاً لعباده	صلني بفضلك عند عبد القادر
إن المسيء لدى الأكارب يلتج	فلجأت عند الشيخ عبد القادر
إن كنت لم أحسن فشيخي محسن	إنني لمنتسب لعبد القادر
ما كنت أهلاً أن أجاب أحب لكو	ن وسيلتي درجات عبد القادر
إيماننا مع سنة في طاعة	زدني بها بالشيخ عبد القادر
صني من الشيطان من إنس ومن	جن بجاه الشيخ عبد القادر
يارب من تعذيب قبر نجّني	يارب من درجات عبد القادر
يارب ثقل لي موازيني غداً	يارب من درجات عبد القادر
أرني إلهي وجه أحمد ملجئي	خير الوري بمكان عبد القادر
وأجب دعاء رجالنا ونسائنا	يارب من درجات عبد القادر
ودعاء كل المؤمنين تقبلن	نظمي وسيلتنا لعبد القادر
عربت ما لأخي وشيخي عجمة	متوسلين معا بعبد القادر

الطريقة التجانية:

نشأت هذه الرابطة الروحية في الجزائر على يد الشيخ أحمد التجاني، وأعظم من نشر هذه الرابطة في غرب إفريقيا هو الحاج عمر الفوتي، ومما زاد في انتشار الطريقة التجانية كثرة زيارة شيوخها الكبار من

34- المرجع نفسه، ص 43.

35- عبد الله بن فودي: المرجع السابق، ص 46.

خارج الدولة ، فإن هذه الطريقة انتشرت في نيجيريا بفضل مشايخها الوافدين من خارج الوطن النيجيري وعلى رأسهم الشيخ إبراهيم الكولخي السنغالي الذي لعب دوراً هاماً في انتشارها، ونالت من الشهرة على يديه شهرة فائقة، فلقد قبل التيجانيون النيجيريون دعوته بكل إخلاص وصدقوه تصديقاً جازماً، وكذلك اعترفوا له بعلمه وفضله وأدبه وتصوفه اعترافاً لا ينكر بين أوساط المجتمع النيجيري، ودونك شذرة من القصيدة يعرض فيها الشيخ أبو بكر عتيق بعض مناقب الشيخ أحمد التجاني مؤسس الطريقة التيجانية، قال:

مقام أبي العباس أعلى وأكبر	مناقبه ليست تعد وتحصر ⁽³⁶⁾
كراماته تربو على القطر والحصي	وتربو على عدّ الرمال وتكثر
لساني عن تعداد فضل إمامنا	كليل فما من فضله المرء يذكر
فماذا يقول المرء في مدح من غدا	خليفة خير الأنبياء ألا اعذروا
خليفته العظمى ووارثه الذي	به نال فضلاً ليس يحويه دفتر
فكان يراه كل وقت وساعة	شفافها عياناً كيفما شاء يحضر
فيسأله عن كل شيء يرومه	ويأخذ من فيه العلوم وتسطر
رقى لمقام الختم والكنم فأنتهى	رقاه إلى ما ليس يدري فيخبر
وعلمه المختار سرّاً مطلسماً	وذلك مما ليس تحويه أسطر
ومن ذاك ما أولاه من سر ورده الـ	لذي نال تاليه الولاية تصدر
علت قدماه فوق أعناق الأوليا	من أول نشأة إلى يوم يحشر
وكان يمد الأولياء جميعهم	فمن بحره كل الأكابر تصدر

وهناك طرق صوفية أخرى غير هاتين المذكورتين وإن كانت أقل انتشاراً في نيجيريا وهي:

الطريقة السنوسية:

أسس هذه الطريقة الشيخ محمد بن علي السنوسي، أنشأ زوايا وأربطة حول برقة وفزان وتشاد وكانم وبرنو، وعمل على نشر العلم والإسلام في تلك الربوع⁽³⁷⁾. ويعتبر سلطان برنو الشيخ بكَرْ غَزَبِي أول من أدخل الطريقة إلى برنو بعد استرداده للعرش عام 1902م ولكن لم يكد الشيخ عمر سَنَدُكْرَا يخلفه

36- محمد أمين عمر: هدية الأحباب والخلان، مطابع الزهراء للعلم العربي، القاهرة مصر، ص 64.

37- آدم عبد الله الالورى: الإسلام في نيجيريا، المرجع السابق، ص 45.

في عام 1923م عقب وفاته حتى هجر الطريقة⁽³⁸⁾ ولا يزال هناك أفراد من مريدي هذه الطريقة في كل من ولايات برنو وأدماوا وكنو النيجيرية.

الطريقة المهدية:

وهي المنسوبة إلى الشيخ محمد أحمد بن عبد الله المهدي، ولقد شقت طريقها إلى بلاد نيجيريا على ركب المغامر السوداني رابع في عام 1893م. وقد دفعته انتصاراته في الحروب أن يقوم بدعاية المهدية، فصدفته القبائل التي تغلب عليها في حروبه فانتشرت الطريقة في برنو وأدماوا⁽³⁹⁾. وبدأ نفوذ المهدية يتدهور في نيجيريا نتيجة قتال زعيمهم حياة الدين، وذاعت شهرة الطريقة بمجهودات الشيخ سعيد بن حياة في كنو وجيغاوا وكشنا وزنفرا وغيرها⁽⁴⁰⁾.

الطريقة العروسية:

سميت بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ أحمد بن محمد عروس. انتشرت الطريقة في الجماهيرية الليبية وفي تونس والسوس الأقصى والقيروان ومصر وفي تمبكتو وغيرها من بلاد إفريقيا. ولقد شقت طريقها إلى نيجيريا على ركب الجالية الليبية الوافدة إلى نيجيريا، ولا يستبعد أن يكون وصولها إلى بلاد نيجيريا في حياة الشيخ عبدالسلام الأسمر على يد شيخه الشيخ سيدي فتح الله أبي راس الذي مات برنو⁽⁴¹⁾. ومهما يكن من أمر، فإن أول مقدم للطريقة العروسية في مدينة كنو هو الشيخ علي بشير من الجالية الليبية المستوطنة في مدينة كنو، وأول زاوية عرفت في المدينة كانت في محلة شاطار، وكان الليبيون يجتمعون فيها للذكر، ثم انضم إليهم غيرهم من الوطنيين. هذه هي الطرق الصوفية السائدة في نيجيريا، ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الطريقتين القادرية والتيجانية كانتا أكثر أتباعا من الطرق الثلاث المذكورة.

أغراض الشعر الصوفي:

قد اشتمل الشعر الصوفي على أغراض الشعر المتداولة بين الشعراء، منها ما كانت جزء من هذه الأغراض الشعرية العربية المعروفة، ومنها ما استقل به شعراء الصوفية دون غيرهم، ومن موضوعات

38- علي أوبكر: المرجع السابق، ص 208-209.

39- المرجع نفسه، ص 108-110.

40- شيخ عثمان كبر: الشعر الصوفي في نيجيريا، ص 108.

41- المرجع السابق، ص 108-110.

الشعر الصوفي وأغراضه الحب الإلهي، التوسّل والاستغاثة، المدح النبوي، مدح الشيوخ، اللعنات، الزهد، الوصول، المناجاة، الرمز وغير ذلك.

الحب الإلهي:

وهو من الموضوعات الرئيسة في الشعر الصوفي، أخذوا هذا الفن أداة يستعينون بها على بث حبهم للذات الإلهية، ووصف أحوالهم ومقاماتهم في طريق هذا الحب، وتعتبر رابعة العدوية أول من تغنى بلفظة الحب واستعملته صريحا في أشعارها، وتوجهت بها إلى الله تعالى وحده، وقالت: إنها لم تعبد الله خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه بل مقصودها من عبادته حبه الخالص المجرد، والمطالعة إلى وجهه الكريم، واستمتاعها بجماله الأزلي. لقد روي أنها قالت في إحدى مناجاةها مع ربه: إلهي إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فأحرمنيها، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي. وفي ذلك الغرض يقول الشيخ محمد الناصر الكبري القادري، زعيم الطريقة القادرية في نيجيريا، يقول في ديوانه:

القلب أنفس شيء أنت مالكة	فاحرسه علك يوما تسكن الغابا(42)
القلب بيت تجلي فيه خالقه	فكن على الباب حجّابا وبّابا
وكن غيوراً على مولاك لا تدعن	إلا بـإذنك غيراً يقرع البابا
فأنت تدخل وعلا كل طارقة	علبه أنى ترى التوابا توابا
تظن أن شياها القلب ليس لها	راعٍ سواك وأن الحق قد غابا
يرى خواطرك اللآتي تطوف بها	خيرا وشرا وترغيبا وإرهابا
لا أستبيح لشخص أن يرى كتيبي	إلا لمن يصلح الصندوق والبابا
وأستعين على الوغال بالملك ال	قهار حتى أراني أسكن الغابا
يدعوك ربك أن تخلو به أبداً	ألا تكون ديوثا ليس محجّابا
أقبل عليه ولازم بابيه فعسى	يكسوك من حلال التوفيق جلبابا
واجعلك بين يديه نصب منظره	من ظن أن غاب عن مولاه قد خابا

فالحب الإلهي بحر يعوم فيه العارفون الربانيون ويشربون منه دائماً بدون ريٍّ كل على قدر ما من به عليه ربه، وهذا الفن قد تناوله مشائخ الطرق الصوفية في دواوينهم بغزارة.

الاستغاثة والتوسل:

ومن العلماء من ينظم شعراً في الدعوات والتوسلات ليتوسل به إلى مولاه، فإذا كان من مشايخ الطرق الصوفية تداول هذا النظم بين مريديه وأنشدوه في حلقات ذكرهم، وإذا لم يكن منهم تداول بين طلبته، وقد ينظم بعضهم ديواناً كاملاً في هذا الفن كما فعل الوزير الجيند الصكتو⁽⁴³⁾. ومنظوماته التوسلية من أحسن ما نظم في نيجيريا في هذا الميدان، منها قوله:

أشكو إلى الله ربي	من سوء جور زماني ⁽⁴⁴⁾
قد كنت فيما تقدم	أمرّ فوق حصاني
فالآن ها أنا أمشي	تقلني القدمان
الخف صار ركوبي	تدوسه الرجلان
أجول في كل يوم	وضرني جولاني
أبيت تعبان ليلي	لكثرة الدوران
يارب يسر أموري	وفرجن ما دهاني
والطف بعبدك واكشف	همي بغير توان
بجاه خير البرايا	المختار من عدنان
عليه صل صلاة	تدوم دوم الزمان
وآله ثم سلم	مانور القمران

ولا يخفى ما لهذه المنظومة من جمال في الألفاظ وعذوبة في الموسيقى، فألفاظها كلها سهلة لا غرابة فيها، ومعانيها ظاهرة لا تعقيد فيها، ويستطيع كل قارئ أن يفهمها في سهولة ويسر.

ومن الذين خاضوا في الغمار الشيخ محمد الجامع اللبيب المشهور بتاج الأدب إذ قال:

بدأت بسم الله روعي به علا	وأثني عليه الله فعلي به علا ⁽⁴⁵⁾
وصل إلهي للنبي وآله	وسلم عليه فائق العد محصلا

43- الوزير الجيند من كبار علماء نيجيريا، له مؤلفات تزيد على ستين كتاباً منشوراً ومنظوماً، وقد فاز بأوسمة عدة منها

الدولية ومنها الوطنية، عاش ما بين 1906-1997م.

44- شيخو أحمد سعيد غلادنتي: المرجع السابق، ص 175.

45- زكريا إدريس أبو حسين: الاستغاثة المنظومة بأسهاء الله الحسنی، دار النور، أوتشي، ايدو، الطبعة الأولى، ص 39.

إليك وجهت القصد يا خالق الورى
وأوقفت قصدي باب خير نبيك
توسلت بالهادي وأصحابه كل
وأن كنت لم أحسن فإنهم محسن
جميلك أهبني نور ذاتك أجمل
وقهر همومي يا إلهي ومالك
وتتسم القصيدة بالسهولة، وليس فيها فكرة عميقة، كلها دعاء واستغفار ورجاء.

المدح النبوي:

هو من أهم أغراض الشعر الصوفي، وقد تطرق إليه شعراء الصوفية في مختلف العصور والأوطان، نبع هذا اللون الأدبي من علماء عرفوا بالعلم والصدق والأمانة. ولقد ازدهر هذا الفن على يد الصوفية، وأذاعوه بعد وفاة الرسول الله صلى الله عليه وسلم واتخذوه قرابة يتقربون به إلى الله سبحانه وتعالى. ومن الأفاض الذين خاضوا في الميدان الشيخ عثمان بن فودي يقول في المديح النبوي لما حبسته الظروف من القيام بالحج قائلًا (46).

هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعا
لما فشا رياه في أكنافها
غودرت أنهمل الدموع موبلا
أقسمت بالرحمان مالي مفضل
أحكي المصاب بشوقه لما عرى
قد كدت شوقا أن أطير لقبه
شمس الضحى تاج الهدى بحر الندى
هو وابل عم الأنام نعامه
لو سرت طيبة نلت غاية مطلبي
أوطار قلبي أن أزور دياره
تهمي دموعي إن ذكرت فناءه
لأزور قبر الهاشمي محمد
وتكمش الحجاج نحو محمد
شوقا إلى هذا النبي محمد
إلا حوى حب النبي محمد
ما لي لذيد العيش دون محمد
ما لي سرور دون زورة سيد
لاخير إلا في اتباع محمد
بل كل خلق الله دون محمد
متعفرا في ترب نعل محمد
دمعي يفيض بفقد هذا المرشد
قد ذابني حب النبي محمد

46 - كتاب بدون اسم المؤلف، وفيه دالية الشيخ عثمان بن فودي، نشره الحاج ثامن يتنندا، بمدينة كنو.

إن قيل لي من ذا يشوقك في الورى
 تبا لمن يأبى اتباع طريقه
 قوموا بنا نسعى إلى شمس الهدى
 نار الغرام تجول بين ضلوعنا
 نسمو على كل الورى بسموه
 كم حائر بين الظلام به هدي
 أخلاقه لم يؤت خلق مثلها
 فأقول إني عاشق لمحمد
 يا طول كربته هنا وكذا غد
 نطوي الفلا لنزور قبر محمد
 ندلي له بمحبة وتودد
 ونسود بينهم وسودد أحمد
 أنواره في كل قلب موحد
 من ذا الذي يحوي كرامة أحمد

هذا غيض من فيض من مدائح جادت بها قرائح الصوفيين النيجيريين، ولا يزال شعراء المسلمين يرتعون في رياض المدائح النبوية إلى اليوم.

مدح الشيوخ:

هناك مدائح متعددة صدرت من شيوخ الطرق الصوفية تقديراً لأولئك الشيوخ الذين استفاد الناس بعلومهم وتأليفهم، فإنهم يرون المديح لهم من باب الوجوب نظراً إلى المنافع والخيرات التي استقوها منهم، ولعل رائية الشيخ يوسف عبدالله اللكوجي التجاني خير شاهد لهذا الباب، وقد مدح فيها شيخه إبراهيم الكولخي السنغالي بعدة صفات تستحق لشخصيته، فاستمع إليه وهو يقول:

برهام فيضاه ما حل العلام به
 كم قرية جهلت من قبل ما عرفت
 يا غوثنا شيخنا يا من له كشف
 ما زلت أقطع في الحضرات حائرة
 ألزمت في ذكره بل ما أفارقه
 أفنيت في حب إنياس مرشدنا
 أجمعت ما افترقت من قبل ما جمعت
 قبل بروزك فينا نحن في دهم
 وأنت جازيتني بالإذن رمته
 إلا وأبكم ذاك العلم مقتصره (47)
 الشيخ نورها بالفيض مفتجره
 لولا علومك بيت العلم ما نشره
 العين من عينه السر منتشره
 أشربت من فيضه خمراً إذا عصره
 جلبيت في ذاته يا قائد الزمره
 أظهرت ما خفيت من قبل ما حرره
 أبهر بعصرك ذا فالنفع مكثره
 منحت لي نفحة والحمد مستمره

47- يوسف عبدالله اللكوجي: تحفة أحباب الرسول الفخيم، مطبعة موييمى العملية، كدونا، نيجيريا، الطبعة الثالثة،

وأنت منيتنا وأنت رغبتنا
 وأنت داخلنا في الجنة الخيره
 وأهدى صلاتي على الهادي وعترته
 وصحبه المرشدي للزمرة النضره
 يتضح جليا في هذه الأبيات صفات صوفية، وكيف يصف المادح ممدوحه، أو المرید لشيخه،
 وفيها اصطلاحات تنفرد بها شيوخ الطرق الصوفية لمشاخهم، وما أكثر هذا النوع من القصيدة في
 دواوينهم !!!.

ومن قصيدة أخرى في مدح الشيوخ يقول الحاج سيد حمل بن محمد في مدح الشيخ إبراهيم:
 دروا أنني قد خضت بحر المحبة
 لذا الشيخ ذي النورين دنيا وأخرة (48)
 هوشين إبراهيم إنياس كوخني
 بن الحاج عبد الله مولود طيبة
 محبة هذا الشيخ عين العبادة
 بعيد إقام الفرض فاختم بسنة
 إذا قمت بالتوحيد لله وحده
 وتعليم مفروضات عملا بسنة
 فما بعد ذا إلا محبة شيخنا
 فلا تتشاغل بالعلوم الجدالة
 فمالي شغل بالعلوم العميقة
 ولا أعرف الإعراب فالحب خدمتي
 فلست أبالي إن خطات لجهلتي
 وثقت بأن الشيخ يعلم محبتي
 فلا تسألوني عن علوم وحكمة
 فعلمي حب الشيخ برهام قدوتي
 فمدحي لهذا الشيخ لو كنت قادراً
 لأكتبه بالتبر لا بممدادتي

اللعنات:

هذا لون آخر من الشعر الصوفي النيجيري وهو جديد ونادر في أشعارهم قلما يتعاطاه الشعراء
 الصوفيون، وإذا ساقته الظروف الحرجة إليه، ولم يجدوا له مخرجا أو حلا ممكنا سواه فيلجأ إليه شاعرهم
 يعرب استيائه به لاعتنا الحادث ومسببه بأنواع من اللعنات بكل جراءة وبسالة. مثال ذلك ما قاله الشيخ
 أبوبكر عتيق التيجاني لما قام الزعماء السياسيون في مدينة صكتو وما جاورها من تحريق الزوايا التيجانية،
 واضطهاد التيجانيين ومنعهم الوظيفة والأذكار في المساجد، وكل ذلك بمساعدة بعض الحكام
 والسلاطين، ومن أجل ذلك كتب الشيخ أبوبكر هذه القصيدة يتوسل بها المولى عز وجل أن ينتقم من
 أعداء الطريقة التيجانية فقال:

48 - الحاج سيد حمل بن محمد أول زكري: تحفة المجذوب في مدح المحبوب، ص 1-6.

يا ربنا بذاتك العظيم
وبنيك وما أنزلته
بالأنبيا والرسل والأملاك
بجملة القرآن يا إلهي
بصاحب الفيضة إبرهاما
وما حوت جوهرة الكمال
وما حوى السيف وحزب البحر
بشيخنا التجاني تاج الأصفياء
بكل قطب في طريقه ظهر
يا ربنا بكل قطب وولي
فلتهلكن رب أمير حوسا
زلزل أموره وأفسد رأيه
واسلبه ملكه وبالفضيحة
وأنزل عليه ربنا صاعقه
تمحقه ولا تبقى أثرا
ياربنا ياربنا يا مقتدر
رب كما قد هدم المساجدا
رب كما قد شتت الجماعه
وخذه أخذه عزيز مقتدر
واغرقه في بحر العذاب المولم
وبدلن في أرضه سلطانا

وباسمه ووصفه الفخيم (49)
عليه بالسر الذي أودعته
بالعرش والكرسي وبالأفلاك
وما احتوى فيه من النواهي
وكل من بحبه قد هاما
وسرها أدعوك ذا الجلال
وسورة الإخلاص مثل القدر
ختم الولاية إمام الأتقياء
من عصره لوقت ذي الفيض ظهر
وكل مؤمن بحبك مليء
سلطان "صكتو" امنعنه الأوسا
خرب دياره وعجل نعيه
حربه يا رب وبالقيح
تهلكه ولتنزلن ماحقه
في بيته فلا يرى ولا يرى
فأهلكه يارب هلاك مقتدر
فاهدمه يارب يكون بائدا
شتت له العيال والجماعه
فاهلكه يا الله هلاك مقتدر
ومزقته ربنا وقصم
يكون في طريقنا معوانا

هذه الأبيات تعطي صورة كاملة لمدى انفعالات الشاعر بالحادث وموجدته على السلطان الذي أعان الأعداء ضد التيجانيين في البلاد. وهذه القصيدة إن دلت على شيء فإنها تدل على أن الشيوخ في

الطرق الصوفية مستعدون لشن هجوم على أي شخص تعدى على طريقتهم مهما بلغت في المجتمع منزلته، قويا كان أم ضعيفا، سلطانا كان أم غيره.

الزهد:

لشعراء نيجيريا قصائد كثيرة نظموها على طراز شعراء العرب فراراً من زخارف الدنيا وملذاتها. وهذا النوع من الشعر يصدر غالباً من الشعراء الصوفيين النيجيريين، ولعل دالية الدكتور داؤد أحمد أدكيكلكن التيجاني، إمام مسجد جامعة إبادن وخطيبه تمثل هذا الغرض وهو يقول في مطلعها:

وَنور الشيب فوق الرأس باد(50)	ألم يأن التزوّد للمعاد
بياض ذؤابه بعد اسوداد	كفي للمرء تذكرة ووعظا
بأن القمح يقرب للحصاد	إذا جاء المشيب إليك فاعلم
ويصرف عنه كل ذوي الوداد	وإن المرء نحو القبر يدنو
هناك غدا ينام بلا وساد	هناك المرء يترك فيه فردا
وأنت لأهل مكرمة معاد	وكيف تنال تاج ذوي الولايه
رجالا من عباقرة الزهاد	تمذهب مذهب العقلاء أعني
وفقه من تلامذة الجنيد(51)	رجال تصوف ورجال علم
فملا ميلاً إلى سبل الرشاد	لقد آن التزوّد للمتأب
لهم زاد وأنت بغير زاد	أترغب أن تكون رفيق قوم
وهمك في تذوقك السلا(52)	فكيف تنال حظ ذوي المعالي
وشغلك بالحرير وبالجكاد(53)	لباس الأصفياء لباس تقوى
هم الأحياء وإنك كالجهاد	فكيف تنال فوز رجال صدق

أمثال هذه الأبيات موجودة بكثرة في دواوين شعراء الصوفية، وبالجملة تلك نماذج من الأشعار الصوفية بوجه عام وهي أكثر دوراناً في قصائدهم.

-
- 50- داؤد أحمد أدكيكلكن التيجاني: القصيدة الدالية الزهدية وبيان فضل التعلق برجال الصوفية، الناشر: موباجولا، أدى ولاية عوشو، نيجيريا، ص 5-8.
- 51- المقصود بالجنيد هنا هو أبو القاسم الخزاز، زاهد بغدادي حج ثلاث مرات على الأقدام، عرف بسيد الطريقة الجنيدية، وعرف أيضاً بطاؤوس العلماء، المرجع نفسه.
- 52- السلا: نوع من الأطعمة اللذيذة يأخذها المثقفون وأهل الثروة، وهي من طعام الأديب.
- 53- الجكاد: نوع من الثياب جميل المنظر، غالي الثمن.

الوصول:

هي طريق الوصول إلى الله تعالى بالتوبة والورع والزهد والصبر والمراقبة والتوكل والرضا بقدر الله خيره وشره. فالصوفي يجتهد حتى يجتاز من مقام إلى مقام أعلى منه حتى يصل إلى الله تبارك وتعالى، وليس معنى الوصول الاتصال بشيء، أو يتصل هو بشيء⁽⁵⁴⁾. قال الإمام الغزالي رحمه الله: إن الوصول هو الرؤية والمشاهدة بسر القلب في الدنيا، وبعين الرأس في الآخرة، فليس معنى الوصول اتصال الذات بالذات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولقد اتخذ الصوفيون هذا الموضوع غرضاً في شعرهم، وفي ذلك قال الشيخ محمد الناصر الكبري في إحدى قصائده متواصلاً:

وصلت إلى الحق الحقيقة بالحق	بعيد مقامي في حقيقة حقه ⁽⁵⁵⁾
بعلم وذوق واكتشاف محقق	تعلمت علم الجمع من قبل فرقه
محقت نظام الكائنات بنظرتي	وأفانيت من بعد إحكام سحقه
وإن كنت تدري ما الوصول فحيهل	إلينا لتدري كيف حالة صدقه
ستعلم عند الامتحان مكانتي	وترفعني من تحت قولي بفوقه
وإن كنت لاتدري الوصول فسلمن	وكل أمرنا لله مرشد خلقه
لقد عرف الأقطاب أني عارف	بحي وسار في سنا نور برقه
ستنيك مصر إن سئلت خيارها	بحالي وإني فيه يعقوب شوقه
وفي بلد الله الحرام أعزة	دروني أولو التحقيق في حق حقه
وفي طيبة الأنوار فاح كرامة	عبير من المولى ففزت بنشقه
إلى الله فوضت الأمور مسلماً	وطالب توفيق لإرشاد أفقه
فإننا من الظن الجميل بربنا	على منهج المختار طه ووقفه
عليه صلاة الله ما ذر شارق	وما حل مشتاق لبارق شرقه

54- شيخو عثمان كبر، المرجع السابق، ص 163.

55- محمد الناصر الكبري: المرجع السابق، ص 25.

فهذه القطعة تلويح إلى أن الوصول درجة يصل إليها الصوفي المتفاني في الله الواحد القهار، والناظم من كبار علماء نيجيريا الفارغين للدعوة الإسلامية من ناحية، والداعية إلى الطرق الصوفية من ناحية ثانية، وزعيم الطريقة القادرية في حياته من ناحية ثالثة.

المناجاة:

وهو لون أدبي روجه الصوفيون نتيجة الخلوات التي يخبون فيها أنفسهم لمناجاة ربهم، ويدور حول الشكر والاستغفار والدعاء والابتهاال والشكوى وغير ذلك مما يكون بين العبد وربّه، وقد تداوله العلماء النيجيريون بكثرة، إذ لم يكن عالم وله باع طويل في الشعر العربي النيجيري إلا وتناوله في أشعارهم كثرة أم قلة.

والسبب في تعاطيه واضح وضوح الشمس، لأن العلماء لا يتركون مناجاة ربهم طرفة عين، راكعين أو مضطجعين، لعلهم بذلك تتحقق أمانيتهم في الدارين، وفي مقدمة هؤلاء السلطان محمد بلو، وقد تفنن في هذا الغرض إلى حد كبير، وذهب بشعر المناجاة إلى أبعد مدى، ولعل رائيته المسماة بالقصيدة المستجابة تمثل هذا الغرض إذ قال:

أناديك يا مولاي في السر والجهر
لتكفيننا من كل سوء وفتنة
إلهي ومولاي ترى ما العدا سعوا
فنصرا عزيزا يا إلهي لقومنا
فلا تجعلنا فتنة للذين هم
وأتمم لنا نورا أرادوا خموده
واسق بلاداً كان فيه مقامنا
أغثنا أغثنا أنت مالك أمرنا
فقد مسنا ضر فضاقت فجاجنا
ونسألك التأييد بالروح في الذي
إلهي رجائي لا تخيب دعوتي

بأسئلك الحسنى السنية كالدر (56)
وترزقنا رزقا كفافا مدى العمر
وكادوا به فينا من الكيد والمكر
فمنك نرجي الفوز باللطف والنصر
عتوا واعتنوا بالظلم والفجر والكفر
ولو كره الكفار من ذلك النور
ومن بركات الأرض أخرج على الفور
وعجل بيسر لا يعقب بالعسر
فمنك نبغي الكشف من ذلك الضر
نريد فمن أيده بآء بالخير
إليك رفعت البث فاشفعه باليسر

وليس في هذه المختارة غير مناجاة ودعوات من العبد الذليل إلى الله الغني الكريم، قرضها الشاعر بلسان متواضع مؤمن بالله واثق به، كاف عباده من البليات. وهنالك عشرات أمثالها في ديوانه، وإنما أتينا بهذه الأبيات لشهرتها بين طلاب العلم والعلماء.

الرمز:

وهو منبع فوار من منابع الشعر الصوفي، ويقصد به التعبير عن معنى قريب غير مراد، والبعيد عنه هو المراد. فالرمز عند الصوفيين ليس هو الغاية بذاته، وإنما هو وسيلة إلى الغاية، وهو يختلف اختلافاً بيناً عن الطريقة الرمزية في الشعر الحديث، وذلك أن الرمزية في الشعر الحديث تنشأ من الموسيقى، ولا تحفل بالفكرة والمطهر. فالرمز عند الصوفيين ينجم عن الحالات النفسية التي تنشأ عن الأحوال والمواجيد، وتقتصر الألفاظ عن تصويرها تصويراً دقيقاً فيعمد الصوفي إلى الرمز والإشارة إليه ليعبر عن فيضه الباطني، فيبدع لنفسه مصطلحات خاصة لا يدركها إلا الصوفي مثله. ولعل قافية الشيخ محمد الناصر الكبرى تمثل هذا الباب إذ قال:

شربنا بطنبت الشراب المروقا	شربا طهوراً ينتج العز والتقا ⁽⁵⁷⁾
سقانا كئوس الأندرين كرامنة	مدير حميا الراح أكرم بها سقا
فغابت به أرواحنا وقلوبنا	فياحبذا ذاك الشراب المروقا
فهمننا به سكرنا وصحننا تهتكنا	وبحننا بأسرارها من قرا رقا
فلو ذاق طعم السكر يوماً وشاتنا	لطاروا به رقصا وخافوا التشدقا
نعم ترقص الأعضاء في الذكر دائماً	إذا ذكرت عهد الحبيب تشوقنا
فلاتنكروا رقصي إذا ما ذكرته	وهل ترقص الأعضاء إلا تعشقا
إذا ذكر الأحاب طارت قلوبنا	إلى رؤية المحبوب تشدو تحرقنا
عكفنا على أمداحه نستطيعها	ونهنز كالأغصان في ذكر من سقا

يرى القارئ في هذه الأبيات رموز يعينها الصوفيون في بنات أفكارهم، فالشراب وكئوس الأندرين والسكر، كلمات استعملها الناظم في غير معناها الأصلي ما لا يدركها غالباً إلا المتعمقون في بحر الطريقة.

الخاتمة:

إن الشعر النيجيري يعدم الحوافز الشعرية التي يجدها قرينه في بلاد العرب، قديماً وحديثاً، ومن الحوافز الهدايا والعطايا التي يحصل عليها المتكسبون بالشعر قديماً، ومنها التشجيع المعنوي الذي يتلقاه الشاعر من جمهور القراء والمستمعين حديثاً. ولما كان الباعث للشعراء النيجيريين إلى تعلم اللغة العربية هو الدين الإسلامي كان لابد من أن ينبع أدهم من منابع الدين، وأن يدور حول أغراض يبررها الدين، لذلك يتمسك معظمهم إن لم يكن كلهم بحبل العقيدة الإسلامية في كثير من إنتاجاتهم نثراً كان أم شعراً. تناولت هذه المقالة الشعر الصوفي في نيجيريا، وآراء العلماء فيه من مؤيد ومنكر، والطرق الصوفية المنتشرة في نيجيريا بصورة موجزة ثم استشهدنا بتسعة أغراض اشتهرت بين أوساط الصوفيين، وقد أتينا بنماذج من شعر الحب الإلهي والتوسل والمدح النبوي ومدح الشيوخ واللعنات... لتدل على أن التصوف الإسلامي ليس بمجهول في ربوع نيجيريا، وإنما فن قديم تداوله شعراء العرب وغير العرب قديماً وحديثاً، وفي نيجيريا بصفة خاصة.

فلا يسع أحداً منصفاً أن ينكر دور الصوفية الأبرار في نشر الإسلام في مختلف الأقطار كما لا ينكر أحد فضلهم في إصلاح الأخلاق وإثراء الفكر الإسلامي بالحكمة والمعرفة ومجاهدة النفس والهوى والشيطان حيناً، وبالشعر العربي أحياناً.
